مراجعات في الكتب - غالب عنابسة

1. كتاب الدكتور ياسين كتاني، ستة روائيين حداثيين

(إصدار: مجمع القاسمي للغة العربية، كفر قرع: دار الهدى للطباعة والنشر، 2011، 198 صفحة)

يشتمل كتاب الدكتور كتاني على ستة فصول، تعكف على دراسة نصوص سرديّة لستّة أدباء من مختلف الأقطار العربيّة، هم: إبراهيم نصر الله، إدوار الخراط، إبراهيم الكوني، زكريا تامر، ليلى الأطرش وسحر خليفة. وهي نصوص يجمع بينها انضواؤها داخل تيار الحداثة، رغم اختلاف تجارب الأدباء ومفاهيمهم الجماليّة وأزمنة صدور مؤلفاتهم.

تتميّز الدراسات، كما يقول كتّاني في المقدّمة، "برؤية نقديّة جديدة، تبحث في أدوات التشكيل الفني واستراتيجيات القصّ واستجابتها، من جهة، لمفارقات الواقع المراوغ والملتبس ومتغيّراته، في ظلّ الظروف الاجتماعيّة والسياسيّة التي وجد الروائيون العرب أنفسهم فيها، واستجابتها، من جهة ثانية، للمتغيّرات المستمرّة في مفهوم الأدب، ووظائفه وجماليّاته، وفي قواعد إحالة النصّ".

يعالج مدخل الكتاب مفهوم/ مفاهيم الحداثة في الحقل العربي، وما أصاب المفاهيم الغربيّة للحداثة من تبدّل حين هاجرت من موطنها الأصلي إلى المشرق، ويبحث في تصوّر المفكّرين والأدباء العرب لحداثتهم، ويخلص المؤلّف من خلال استعراض أهمّ وجهات النظر، "أنّ ما حدث في العالم العربي من تنوير وتحديث، في الحياة السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة والثقافيّة، لا يعدو أن يكون نخبويًّا ولا يمسّ جذور الأبنية العميقة الأساسيّة لمجتمعاتنا العربية"، ويعلّل من ثمّ أسباب فشل مشروع الحداثة العربيّة؛ بأنّ أبرز ما فيه يقتصر على مظاهر الحداثة التقنيّة القابلة للتسويق. ولكنّ الأمر يختلف تمامًا فيما يتعلّق بالإبداع الأدبي، فجميع المثقّفين يراهنون على قوّة الإبداع في التجاوز والتخطّي، فالإبداع الحداثي العربي يتمحور في "التساؤل حول الممكن، والاحتجاج حول السائد"، فيسهم الإبداع في تغيير الواقع عن طريق تقويضه وإعادة صياغته على نحو أجمل وأعدل وأنظف. وبالتالي، فإنّ هذه الرؤيا الإبداعيّة، تعتمد الفانتازيا والحلم والأسطورة وسيلة للتغيير،

وتستخدم نفس تقنيات النصوص السرديّة الغربيّة في المباني والأساليب رغم التباين العميق بين الحداثتين.

يتناول الفصل الأول "الكتابة تعادل البقاء: التشكيل الفني في رواية إبراهيم نصر الله "أعراس آمنة، 2004"، للأديب الفلسطيني- الأردني، يشير فيه د. ياسين كتاني إلى التشكيل الحداثي للرواية الذي يتمثّل في تهشيم التتابع السردي بين السابق واللاحق، مما يستوجب من القارئ القيام بتنظيم الأحداث من جديد، كما يتمثل بالمفارقة التي يتمّ تفعيلها في النصّ كعنصر أساسي في بناء النصّ وصياغة الدلالة.

أمّا الفصل الثاني الذي ورد تحت عنوان: انهيام الحدود ولعبة الإيهام والتجاوز في رواية "ترابها زعفران، 1986" للروائي والناقد المصري إدوار الخراط، فيتناول إشكالية تصنيف هذه النصوص السرديّة، ويتناول من زوايا تحليلية مختلفة تقنيات السرد الروائي، وقد اكتسبت لدى الخراط في هذه الرواية فرادة ورؤيا حداثية جديدة ومميّزة. يتناول الدكتور كتاني في الفصل الثالث موضوع: "التاريخ والفضاء التخييلي في رواية "نداء ما كان بعيدا، 2006" للروائي الليبي إبراهيم الكوني، وهي رواية استقى الكاتب فيها مادته من فترة حكم أحمد الأكبر القرامنلي في القرن الثامن عشر. وإذا كان لجوء الكوني إلى التاريخ في هذه الرواية استجابة لحسّ وكبرياء وطني، فإنّ الدكتور كتاني يرى فيه محفّزًا لارتياد عوالم تخييليّة أو افتراضيّة تصدر عن مخيّلة الفنان فتحوّل التاريخي إلى تراث وجداني.

يتناول الدكتور كتاني في الفصل الرابع، استجابة الشكل للمضمون في القصص القصيرة للأديب السوري زكريا تامر، ويبرز الأجواء والمضامين في مجموعاته القصصية القصيرة، والاستجابة المتبادلة بين الشكل والمضمون فيها، حيث أملت المضامين توظيف التقنيات التي تنسجم مع تجربة الكاتب ومشاعر السأم والغثيان التي يورثها الواقع الاجتماعي والسياسي.

الفصل الخامس من الكتاب يعالج تجليات الحداثة في رواية للكاتبة الفلسطينيّة الأردنيّة ليلى الطرش بعنوان: "الرواسي تصير هباءً: المفارقة والتضادّ في صميم "مرافئ الوهم

2005" ، وهي رواية تعالج، كما يشير الباحث، مناحي ثقافية ذكورية في المجتمع العربي وكل المرافئ التي اعتبرت آمنة ليست كذلك في الحقيقة. الفصل الختامي لكتاب الدكتور كتاني هو الفصل السادس، ويتناول لغة القصة عند سحر خليفة بعنوان: "الترانسيندنتالي يتسلق على أكتاف الواقع: تعدد اللغات وتناوبها في رواية سحر خليفة" ويبحث الفصل في تعدد اللغات على مستوياتها المختلفة لدى هذه الروائية الفلسطينية، فمن اللغة المعيارية إلى اللغة المراوحة للعاميّة ومن ثمّ ترتقي اللغة لتغدو شاعرية، منسجمة في تبدّلها مع إملاءات الواقع أو سموها عنه هروبًا من سطوته.

لا نغفل أن نشير في نهاية مراجعتنا للكتاب أننا أمام دراسة جديدة مميّزة، جادة وحاذقة في حقل أدبي مهمّ في أدبنا العربي الحديث لستة روائيين حداثيين، بل رائدة في مجال الدراسات الأسلوبية الحديثة للرواية العربية.

2. كتاب هيفاء مجادلة، هموم المرأة العربية في أدب ليلى العثمان، قراءة في روايتي "العصعص وصمت الفراشات"

(إصدار: مجمع اللغة العربية، مطبعة الهدى، 2011، 161 صفحة)

تقدّم الباحثة هيفاء مجادلة للقارئ دراسة رائدة في مجال الأدب النّسائي الحديث، وفق روايتين حديثتين للكاتبة الكويتية المرموقة ليلى العثمان، وهما رواية "العصعص" (2002) ورواية "صمت الفراشات" (2007). وتركز في دراستها على مسألة لطالما لم تطرح في الدراسات الأدبية والاجتماعية والسيكولوجية، ألا وهي هموم المرأة العربية التي عانت من التّميز والكبت والقهر والاضطهاد عبر قرون. ولم يكن اختيار الباحثة هيفاء للأديبة ليلى العثمان صدفة، وإنما عن وعي وإدراك بيّن، كون ليلى العثمان تتميز بالكتابة الصريحة والجريئة، بعيدًا عن الكتابات الرمزية أو السريالية.

وفي تقديمه للكتاب، تحت عنوان "مبدعة شجاعة وناقدة موضوعية جادّة"، يشير البروفسور سليمان جبران إلى أن الباحثة هيفاء مجادلة "لا تهيّب السّير في حقول الألغام؛ تعرف كيف تميّز بموضوعية بين الجوهري والهامشي، بين الغاية السامية وما يعلق بالطريق إليها من شوائب. الغاية السامية هي رفع الظلم التاريخي عن المرأة، في الكويت، وفي المجتمعات العربية كلها، وكل ما عدا ذلك شوائب وقشور".

تشتمل الدراسة على أربعة فصول، تتناول مجادلة في الفصل الأول عدة محاور منها، أهمّ الإشكاليات التي رافقت ظهور مصطلح «الكتابة النسائيّة» والتي لم تقف عند حدود التّسمية، بل تجاوزتها حول طبيعة هذه الكتابة، ومدى تأرجح النقّاد والدارسين بين مؤيّد للمصطلح ومعارض له.

بعد استحضار الباحثة للعديد من الآراء حول المصطلح تخلص إلى ثلاثة مواقف أساسيّة في التعامل مع ظاهرة الأدب النّسائي، موقف يقرّ بهذا المصطلح، وبالتّالي فهو يقرّ بوجود خصوصيّة للمرأة وسمات فنيّة خاصّة بكتابتها. وآخر يرفض المصطلح ولا يعترف بوجود تفرقة بين المرأة والرجل في الإبداع الأدبي، وبالتالي فهو يرفض الوقوع في فخّ

الخصوصية. وموقف ثالث هو موقف الوسطيّة، فهو يقرّ من جهة بخصوصيّة التجربة الخاصّة بالمرأة، ومن جهة أخرى يرفض أن تكون هذه الخصوصيّة نابعة من خصوصيّة طبيعيّة تلازم المرأة، وتشكّل محدّدات للأدب الذي تكتبه.

مسألة أخرى تطرحها الباحثة في هذا الفصل ترتبط بتطوّر الأدب النسائي والمراحل المختلفة التي مرّ بها، بدءًا بالنهضة الأدبيّة النسائية كمرحلة تقليد ومسايرة الخطّ الإبداعي السّائد، وتميّزت كتابات هذه المرحلة بافتقار المرأة الكاتبة لخصوصيّتها الفنية، والتزامها بالمعايير الاجتماعية وعدم خرق الموضوعات المحظورة. تبعتها مرحلة التمرّد والاحتجاج، بعد ظهور رواية "أنا أحيا" عام 1958 للكاتبة اللبنانية ليلى بعلبكي، هذه الرواية التي أدّت إلى حالة من الثورة في كتابات المرأة وفق إجماع الكثير من النقّاد، تلتها كتابات غادة السمّان وسحر خليفة وأحلام مستغانمي. ولا بد من الإشارة أن هذا التمرد كان نتيجة للكبت والقهر الذي تعيشه المرأة العربية، أو بمثابة تمرّد ضدّ القيود الاجتماعية التي فرضتها البيئة العربية على مر السنين. ثم مرحلة تحقيق الذات نتيجة لانفتاح العالم العربي على الغرب. بدت فيه الكاتبة أكثر وعيًا بذاتها، وأكثر نضجًا وشمولية بمطالبتها لحرّيتها وحقوقها. وحقّقت هذه المرحلة تناميًا أقوى في ظهور الروايات النسائية، وقد صاحب هذا التراكم الكمي نضج فني وفكري.

ثم تعاين الباحثة هيفاء مجادلة أبرز الموضوعات التي شغلت الكتابة النسائية منها: قضية التمييز بين الرجل والمرأة، النظرة الدونية للمرأة وممارسة العنف ضدها، فضلا عن هموم العالم العربي، مثل هزيمة العربي عام 1967 والتي هزت مشاعر المجتمع العربي بكل أطيافه وفئاته. ولا تغفل الباحثة أن تشير إلى إشكاليات واجهت الكتابة النسائية مثل تهميش الأدب النسائي، والنقد السريع غير الموضوعي لكتابة المرأة من قبل النقاد والمثقفين، مستعرضة نماذج وأمثلة لمثل هذه الآراء.

في الفصل الثاني تتناول مجادلة الكاتبة الكويتية ليلى العثمان من حيث نتاجاتها الأدبية ورؤيتها الفكرية، كما تبرز نظرتها إلى مصطلح الأدب النسائي، حيث ترفض العثمان هذا

المصطلح ولا تعترف بوجوده. أما نتاجاتها الأدبية فقد توزعت بين الشعر والقصة القصيرة والرواية والمقالة والسيرة، لترصد الواقع الاجتماعي والسياسي والثقافي في المجتمع الكويتي.

ترصد مجادلة في الفصل الثالث هموم المرأة وقضاياها كما تجلّت في أدب العثمان، أهمّها النظرة الدونية للمرأة وتعرّضها للاضطهاد والعنف، الزواج المبكّر، الفارق العمري بين الزوجين، عدم التكافؤ في الزواج وأضرار ذلك على المرأة، تزويج الفتاة دون موافقتها، التّنبيه على ضرورة استقلالية المرأة ثقافيًا واقتصاديًا، موضوعة الجنس، تشويه صورة الرجل، التّفاوت الطبقي حائلاً أمام الحب، تشريح علاقات المرأة بالرجل وتركيبها النفسي والاجتماعي، هجاء القهر العائلي والمجتمعي، فرض ثقافة الصمت على المرأة، نظرة المجتمع إلى الأرملة، الفوارق الاجتماعية بين المرأة والرجل، إدانة ازدواجية المجتمع والأفراد، تحكّم ذوي القدرات المادية في مصائر الناس.

ثم في الفصل الرابع تتناول مجادلة هموم المرأة بين مضمون الخطاب الروائي والتقنيّات السرديّة، حيث تشير الباحثة إلى العلاقة بين الشكل والمضمون، نأخذ على سبيل المثال مما ورد، استخدام ضمير المتكلم لرفض النظام الاجتماعي السائد والذي يحاول قمع المرأة، ثم المكان المفتوح والمغلق لبلورة الشخصيات لتعبر عن نفسها، بينما الزمان كان متداخلا في عمليها "العصعص" و"صمت الفراشات" ليلتقي الماضي بالحاضر، في حين أن اللغة كانت عاطفية رومانسية، تتلاءم ولغة المرأة، فضلا عن موتيفات مختلفة مثل موتيف العصفور السّجين وموتيف الحلم لخلق عالم مثالي يوتوبي.

وإذن، يجد القارئ نفسه أمام دراسة رائدة في الأدب العربي الحديث، لا سيّما موضوعة الأدب النسائي، ودراسة مختلفة عن الدراسات التي سبقتها من قبل الباحثين العرب، يكمن فيها الكثير من العمق، وتشبع فضول القارئ والباحث في آن واحد، وهذا يدلّ على قوة الملاحظة والنّقد والتحليل والرؤية العميقة لدى الباحثة هيفاء مجادلة، بانَ ذلك من خلال مبنى البحث المتتابع، والأسلوب العصري، وطريقة الدراسة التحليليّة اعتمادًا على نصوص مختارة، والاطّلاع العميق على دراسات سابقة تتناول الكتابة النسائيّة بشكل عام.

والمجمل فإن مجادلة، قد سطّرت محورًا جديدًا لدراسة الأدب النسائي من جديد.